قطـع مختـارة

غراميات متعلم جزار

رواية

ترجمة :

حسان بورقية – محمد الناجي

نشر الفنك

© نشر الفنك 2007
89 ب، شارع أنفا – الدار البيضاء
ردمك : 9954-415-66-1
الغلاف : خديجة قباج

إلى ابنيّ، جواد وماريا.

من الشمس طلوع أو غروب

عمر الخيام، «الرباعيات»

لم أكن شيئا ذا بال، لقد طفح الكيل.

ج. كازانوفا، «قصة حياتي»

جذور الحب لدى الإنسان
بعيد غورها في الأعماق
تملأ الشغاف وتسد
من القلب كل الآفاق.

م. هوبليك، «توسيع مجال المقاومة»

لقب مميز. وباختياري لهاته المهنة المحتقرة في هذا البلد قطعت الصلة، عن غير قصد، مع أسلافي العلماء. فسلالتي تضم عددا من العلماء المتنورين. الذين نجد من بينهم إمامين، قاض وعادل.

بل إن أحد أسلافي، خلَّد اللهمّ حكمته في ذاكرتي، كان من كبار مفسري القرآن، بحيث كان الأساتذة في كثير من المدارس القرآنية في هذا البلد يحيلون الطلاب على تفسيره.

أما أبي، وهو عادل محترم في المدينة القديمة في مراكش، وصاحب معرفة واسعة، فقد لبث أمدا طويلا قبل أن يتفهم الأمر ويقبل في نهاية المطاف حيادي غير المفهوم عن طريق الأسلاف. وقد كان يقول عني، حين يبلغ به اليأس حدا لا يطاق، بأنني الابن المخزي الذي أنجبته أرومة عائلة، أرومته، التي بجلتها وتملقتها عدة أجيال من المراكشيين. كان أحيانا يدعوني بالعرش المذلول، أو التمرْة الفاسدة، المليئة بالدود، والتي لا تصلح لشيء، حتى لإطعام الدواب.

أما في السوق الذي كنت أمارس فيه الجزارة، فقد كنت معروفا بلقب مزعج، هو القرد الفاسق، لقب محزن خلعه علي فساق ذلك المكان،

أريد أن [redacted] أحوال مراهق دمره والده ـ وهو رجل قُدّ من حديد وصخر، شح[redacted]، متعطش للمال والسيطرة.

أريد أن أح[redacted] رغباتي، وغرامياتي، وزواجي (ويا له من زواج!)، عن عش[redacted]دي، تيهي وضعفي...

أريد أن أحكي لك[redacted]، عن ذلك اللقاء الذي غير مسار حياتي جذريا، ع[redacted]غرامياتنا المحرمة، التي اختلسناها بالكاد من مجتمع [redacted] وسهام الحساد فيه.

باختصار، أريد أن أحكي [redacted] العاطفية، التي تلقيتها في سرية تامة، وفق مشيئة المكتوب [redacted] الفجائية.

في البداية كانت حياتي أشبه ما تكو[redacted]. كنت صبيا عاديا كباقي أقراني، وربما لم أكن عاديا تماما. ولكن [redacted] يكون عاديا في مثل هاته المدينة المخبول نصف سكانها؟ لنقل [redacted] عاديا إلى حد ما.

وككثير من الأطفال المنحدرين من هاته [redacted]كن المنفرة والمحافظة التي يسودها حُكْمُ الأسلاف، كنت أرتاد مدرسة بن يوسف ـ وهي من المدارس العتيقة، التي تنهج في التعليم طريقة عتيقة ترتبط ارتباطا وثيقا بقيم كانت مقدسة فيما مضى.

بما أن تعليمي بدأ تحت الإشراف الصارم لوالدي فقد كانت بدايته ناجحة – لم لا أجرؤ على القول بأنها كانت ناجحة للغاية؟ – لقد حفظت، وبكل

أصبحت شخصا آخر، أصبحت حيوانا غريبا لا يشبه في شيء ذلك التلميذ المجتهد والنبيه الذي كنته حتى ذلك الحين. تلاشت قدراتي الذهنية. و لم تعد الدراسة محط اهتمامي، كأن عفريتا، أو قدرا خبيثا، يجذبني بعيدا عنها. وذكائي، الذي كان مضرب المثل عند أساتذتي، خبا دفعة واحدة؛ و لم يعد بإمكاني أن أستمد منه أي شيء إيجابي بالمرة. لقد أصبحت كحمار أو بغل وقف عند قنطرة رافضا اجتيازها، بحيث لا يجدي حثه على التقدم، أو دفعه، أو جره أو ضربه: يكون على صاحبه حينها أن يعود به أدراجه ويبحث عن طريق آخر.

غادرت المدرسة، مخيبا بذلك آمال والدي الذي كان يتمنى أن أكون قاضيا، أو عادلا مثله على الأقل.

الواقع أن مغادرتي للمدرسة كانت لها أسباب ملموسة أخرى لم أدركها إلا عندما عشت أولى أزمات المراهقة.

ذهبت طفولتي وذهب معها الخوف، ذلك الخوف الرهيب والشامل الذي يعم تربيتنا ويحكم حياتنا من أقصاها إلى أقصاها. وخلافا كل التوقعات ظهر مكانه عقل نقدي، فيه شيء من التمرد. وفجأة زالت الهالة الأسطورية التي كانت تغلف العالم: فزالت عن الناس والأشياء هالة القداسة التي أحاطهم بها خوفي أيام كنت طفلا طري العود، طفلا يؤمن بالخرافة ويعتمد على غيره في كل شيء.

أطواري، وكانت بلادتهم البقرية تنفرني.

أما معظم زملائي في الفصل فكانت معاشرتهم مثيرة للملل، ومزعجة، بل مستحيلة؛ كان شغلهم الشاغل هو طي صفحة طفولتهم بسرعة، والتنصل بأي وجه من الوجوه من كل ما يربطهم بعمرهم الحقيقي، وكأنه عادة مخجلة يريدون الإقلاع عنها. يقضون وقتهم داخل القسم في التنافس أيهم سيكون أكثر جدية وحكمة، ويحاولون تقليد أساتذتهم، فيتكلمون، ويفكرون مثلهم، بل يذهبون إلى حد تبني عاداتهم المضحكة...، وهي تصرفات تجعلهم مثيرين للسخرية بشكل مثير للغثيان.

حتى المدرسة نفسها تثير التقزز: فهي عالم مليء بالأطفال والرجال فقط -- بذكور شهوانيين، يتوجعون مما احتقن في أعضائهم التناسلية. كان ذلك العالم الذكوري يصيبني بالإحباط. كانت أجواؤه خانقة وثقيلة. وكانت القاعات تفوح منها رائحة المني. لقد قرأت في مكان ما بأن عالما بلا نساء عالم قاحل.

ثم ما معنى هاته المدرسة المنتمية لزمن مضى ؟ قد يتفهم المرء وجودها في جدة أو في كابل ؛ أما في مراكش، على مرمى حجر من النوادي الليلية والمسابح المختلطة فلا! على من يضحكون ؟

بعد ذلك، وبوقت كثير، أدركت أن المجتمع برمته مبني على أمور غير متساوقة : المساجد والحانات، دور القرآن ودور الدعارة، الأزقة الضيقة

وذات يوم قرر أن يسلمني لأحد الصناع التقليديين لأتعلم حرفة ما. إذ لا يجب أن أظل عاطلا طوال الوقت هكذا لا أقوم بأي شيء! والرجل الجدير بهذا الاسم لن يقبل أبدا أن يكون عالة على رجل آخر، حتى وإن كان ذلك الرجل هو أبوه! كما أن الحياة كانت صعبة في ذلك الوقت، فبالكاد يستطيع المرء أن يكسب ما يسد به رمقه هو...!

أخبرته بأن المهنة الوحيدة التي تعجبني فعلا من بين كل المهن الممارَسة في المدينة القديمة هي الجزارة. نظر إلي العادل في ذهول. غطت سحابة داكنة عينيه اللتين ترقباني من تحت حاجبين كثيفين. واحمر وجهه الشبيه بوجه المُلا القاسي. وانتفخت العروق في جبهته. تلك علامات خبرتها من قبل: إنها تنبئ بأنه على وشك أن يصب علي جام غضبه.

– أعد ما قلت! قال وهو يحاول جاهدا أن يكظم غيظه.

أعدت عليه نفس القول، بنفس رباطة الجأش، ونفس الحزم. انقض علي العادل، وقد طفح به الكيل، كما ينقض الحيوان الضاري على فريسته، موسعا إياي ضربا ولكما ورفسا، ضاربا كيفما اتفق، وهو يصرخ قائلا بأنه سيقتلني وهو مرتاح الضمير، واصفا إياي بصفات متعددة: العرق المدلول، الثمرة الفاسدة، المسخوط، الابن الذي يوسخ خط نسبه الزاخر بالعلماء، الابن المخزي... باختصار، لقد أطلق علي سيلا من الشتائم التي حفظتها عن ظهر قلب من كثرة ما سمعتها.

وكفتة البقري التي تدعوك لشويها، وكوطليط الغنمي، ومليجات العجل... كل هاته الروائع المهداة لنا من السماء كانت معروضة بطريقة تغري حتى أشد المارة لامبالاة بمجرد ما يتكرم بإلقاء نظرة عليها. كنت أحب كرعين البقر الموضوعة على طرف المبسط بشكل متعامد. أحب الشحوم الطافحة بالنعومة والصفاء. أحب المخ الموضوع بعناية على سيقان الكزبرة، وقلوب العجول القوية، المنتزعة كأجراس خرساء. كنت أحب حتى الأحشاء الملفوفة، اللامعة، وهي تقطر ماء، وهي لا تزال تنبض بالحياة...

ثم كان هناك لمعلم جبّار، صاحب المحل: رجل مربوع القد، بدين، قفاه عريضة وممتلئة، كتفاه مستديرتان، نحاسي البشرة. كنت معجبا به أيما إعجاب. كان جسمه البدين، وهدوؤه ومظهره المثير يضيفون سعادة أخرى، وكمالا شارحا للصدر إلى تلك الجواهر الحمراء والبيضاء. وقد كان شاربه الشبيه بمقود الدراجة، المنحدر برشاقة حتى الذقن، ووجهه المكتنز يجعلان منه رجلا جديرا بالاحترام والثقة، إنه أحد الشخصيات المميزة في السوق. لهذا لم يكن من المستغرب أن يقترحوا عليه التقدم للانتخابات التشريعية. فبالإضافة إلى أن لمعلم جبّار هذا سيكون، بالنسبة للسلطات، سياسيا ذا مظهر لائق، فهو لن يحتاج بكل تأكيد إلى الكثير من الخطب ليقنع الجماهير، لأن بدنه العملاق سيفي بالغرض.

الدكان طويلا بحيث أثير انتباه لمعلم جبّار. يحدث ذلك حين لا يكون لديه زبناء كثيرون، عند المساء، أو بعد الظهيرة. عندها كان يحييني بابتسامة عريضة ومرحة، مبرزا إياها بذلك الشارب القوي الذي ينجذب قليلا نحو الجانبين. كان يقول لي، بنبرة كلها رقة وعطف: «عد إلى البيت أيها الصغير، أمك ستقلق عليك!» ومن حين لآخر يمنحني قطعة من لحم البقر، أو شرائح خروف طرية (وهو شيء نادر الحدوث في هاته المدينة)، يلفها بسرعة فائقة في قطعة من الورق الصقيل. «إلى الشواء، يا بني!» كان يقول وهو يلقي بها إلي. ولكي أمسك بها قبل أن تقع على الأرض كثيرا ما كنت أدع محفظتي تسقط على الأرض!

لم أحاول يوماً أن أفسر حبي للجزارة. يبدو أنه نابع من جوهر كياني نفسه، إحساس متجذر في، عشق فطري، وطبيعي، موهبة من الله.

ورغم قوة عشقي للجزارة وكونه عشقا حقيقيا فإنني لم أجرؤ يوما على البوح به لأي كان. إنه سر، إنه موضوع يحرم الكلام عنه. فالعادل وكل المحيطين بي لن يفهموا كيف يمكن أن تغري صبيا مثلي، منحدرا من عائلة متميزة بعلمائها، تلك المهنة الحقيرة التي يشتغل بها العوامّ.

لما أحسست بأن العادل يتهيأ للعثور على عمل لي قررت أن أطلعه على ما يدور في خلدي. لقد حان الأوان لأتحدث عن المحرم، وأتخلص من ذلك السر الذي أناخ بكلكله على قلبي. كنت في السادسة عشر

اتخاذه ذلك القرار أدركت أن ما قام به جلادي هو تغيير طريقته. لقد انتقل من التعذيب الجسدي إلى التعذيب النفسي، ولكن الهدف لم يتغير: إخضاعي ليقودني كما يشاء. أصبحت الطريقة الجديدة هي تجاهلي تماما. لم يعد العادل يكلمني بتاتا. ولم يعد ينظر إلي. لم يعد وجودي يثير الانتباه، أصبح حضوري كغيابي، وظهوري كاختفائي.

ولكي يحكم طوق العزلة علي، أرغم أمي وأختي على التصرف معي بنفس الطريقة، فأطعنه، بدافع الخوف طبعا.

دامت تلك العزلة الجبرية ثلاثة أو أربعة أشهر. عزلة وفرت لي هامشا من الحرية الكاملة، أو شبه الكاملة. فقد انتهزت الفرصة لأتسكع في أزقة المدينة وأسواقها المزدحمة، مبليا حذائي بالمشي وراء الحسناوات ذوات الأرداف المكتنزة.

وعند احتياجي للنقود أتوجه إلى حي سيدي بولوقات، حيث توجد الفنادق. هناك أترقب ظهور سائح فرنسي أو اثنين فأقترح عليهما أن أكون مرشدهما السياحي عبر أسواق المدينة القديمة، مقابل قليل من المال. أحيانا يدر علي ذلك مالا كثيرا. وحين يحالفني الحظ كنت أصادف سياحا أسخياء، يغدقون علي الملابس، القبعات، الكتب، الأقلام والحلوى... علاوة على المال. بل هناك من يتفضل بدعوتي إلى المطعم بعد انتهاء زيارتنا للمدينة القديمة. أما الدعوات التي توجه إلي لزيارة الفندق فكنت أرفضها بطريقة مهذبة.

بسرعة في إحدى الغرف، منكسا رأسه، ومشيحا ببصره عني. على سحنته المكفهرة ترتسم إهانة لا يطيقها، وهي كونه فقد الصفة التي كان يتمتع بها حتى ذلك الوقت، أي صفة الأب، أو بالأحرى السيد، المهاب الجانب، الذي نتملقه، الرب المحاط بأنبيائه وقديسيه.

جلي أنه سيحتاج وقتا طويلا ليقبل بوضعي الجديد، ليقبل ما لا يقبل، كما يقول هو.

ذات صباح، وقد بدأت أستمتع بحياة الخمول والتنزه، أمسك العادل بذراعي وقادني، دون أن ينبس ببنت شفة، إلى لمعلم جبار، جزار السوق المعروف. أخيرا سيتحقق حلمي، رغم أنف العادل. لقد ذهلت فلم أنطق ولو بكلمة واحدة.

– أفوض إليك أمر هذا الطفل، قال له بنبرة منكسرة، هذا المسخوط لا يريد أن يفعل أي شيء ! لقد بذلت كل ما في وسعي لأقنعه بالعودة إلى المدرسة دون جدوى ! وها أنذا اليوم أفوض أمره إليك أيها لمعلم جبّار ؛ فهو منذ الآن أمانة بين يديك وبين يدي الله جل وعلا ! اعتن به، وليرحم الله والديك رحمة واسعة !

– لا تقلق، سيدي علي ! أجابه لمعلم جبار. إنه لشرف عظيم لي أن تضعوا فلذة كبدكم بين يدي، ابنا ينحدر من سلالتكم المبجلة ! أعاهدكم أمام الله العلي القدير أن أعتني به اعتنائي بولدي !...